

النص الأدبي ومستوياته التشكيلية - مقارنة في ضوء المنهج الأسلوبي

د/ ناصر بركة

جامعة المسيلة

إنَّ إيمان النظر في مساءلة النص الأدبي ضمن أطره المعرفية ومرجعياته اللغوية يؤكد أهمية البحث عن التحولات التي تنتاب العملية الإبداعية وفضاء التشكيل الفني؛ لتظل هذه العملية دليلاً على أهمية الدور الذي يمكن أن يضطلع به فعل الكتابة في استثمار المعطيات اللغوية التي تعكس في صور من صور تفردنا سلطة النص بوصفه كياناً يؤسس لقراءة تجعل من اللغة بؤرة مركزية منها الابتداء وإليها الانتهاء؛ لذا يستمد المنهج الأسلوبي معالم تشكله النقدي ضمن نطاق اهتماماته واشتغاله على المستويات المؤثرة لمعمار النص الذي يفرض بتأثيره وغوايته نمطاً من أنماط التلقي القائم على إدراك خصوصية الخروج عن مألوف الاستعمال، فإذا الكلمات جمل والجمل فقرات والفقرات نص والنص إبداع من نوع آخر.

هكذا يهدف هذا التوجه للمنهج الأسلوبي في دراسته للنص إلى البحث عن مستويات التشكيل اللغوي التي تغدو معها حركات الذات المبدعة وسكانها واقعة لغوية متميزة شكلاً ومضموناً، فتستثير القارئ ليبحث عن طبيعة مادتها ومدلولاتها التي لها دورها في تحقيق حضور النص وتحقيق إشعاعيته في سياق القرائن الدالة على المقصود من الخطاب.

Résumé :

Une analyse profonde dans le questionnement du texte littéraire selon son cadre cognitif et ses références linguistiques confirme l'importance de la recherche des mutations dont fait l'objet l'opération créative et l'espace l'art visuel ; pour que cette opération prouve l'importance que revête l'écriture dans l'investissement de langage qui reflète une des images accaparer par le pouvoir du texte comme étant une entité qui instaure une lecture qui rend la langue un foyer central d'où tout commence et tout se termine .

C'est pourquoi la méthode stylistique prend toute sa dimension dans les limites de ses préoccupations et son intérêt pour les niveaux fondateurs de l'architecture du texte qui s'impose par son influence un des types de réception basé sur la perception de la faculté de sortir des sentiers battus, donc les mots forment des phrase et les phrases forment des paragraphes qui a leurs tour forment des textes et le texte est une création d'un autre genre.

Ainsi, ce penchant pour la méthode stylistique dans son étude du texte à pour objectif de chercher le niveau de constitution linguistique avec laquelle les mouvements et les quiétudes du soit créateur deviennent un fait linguistique distinct dans la forme et dans le fond. Elle incite le lecteur à chercher la nature de sa composante et sa signification qui joue un rôle dans l'accomplissement de la présence du texte et de son rayonnement dans le contexte des indices révélant l'objectif du discours.

توطئة

إنَّ التعامل مع الطبيعة المعرفية لأيّ مصطلح أدبي؛ يستدعي الخوض في امتداداته والتعمق في استقراء حفريلته وتشعب دلالاته، بالبحث عن علامته المتعددة وصور التبليغ المنهجي عند الجمع بين النظرية والتطبيق، والأسلوبية ليست استثناء في مثل هذه الحقول الإنسانية المتشعبة، لما عرفته من تطورات تاريخية مرتبطة بالنشأة ومراحل التكوين؛ التي قطعتها دون أن يحدّث، في مسارها التحولي، قطيعة معرفية أو حلقة مفقودة، كما كان لمرونة الحركة الفكرية التي عرفتها بدليات القرن العشرين دورها في بلورة رؤية اصطلاحية أسهمت إلى حدّ بعيد في إثراء هذا المجال الواسع من الدراسات ذات الصلة بالأدب وفنونه، حتى غدت تخصصاً له طرائقه التحليلية وأعلامه البارزون.

وهذا الثراء لم يكن بمعزل عما اقتضته حدود الفواصل الزمنية؛ فقد ساهم ذلك النشاط العلمي الذي ولكب مسيرة الحركة المتميزة لعلم اللغة على يد (فرديناند دي سوسور) **Ferdinand de Saussure** حتى صارت له مكانة في مستويات الاستعمال المعجمي أو الاصطلاحي، ماهية ومفهوماً، إذ يطلق عليه في الإنجليزية عبارة (Stylistics) أما في الفرنسية فيقال: (Stylistique) والباحث في الأسلوب (stylistician)؛ إذ

يُتعامل مع النص بوصفه مكاناً نتحقق فيه "التفاعلات الكيميائية التي تولد قيماً أدبية انطلاقاً من عناصر كلامية. لكن المكان - هو بدقة أكبر - المقطع وعلاقات المقاطع النصية التي تحمل الكيمياء الأسلوبية، ويفتح هذا المصطلح لذاته حسب رجاء عيد - مجالات أرحب عدد دراسة الإمكانات اللغوية؛ التي تمارس تأثيرات جمالية مع محاولة البحث عن الركائز التي يعتمد عليها هذا التأثير الجمالي¹، بحكم التباين بين قدرات الأفراد في استعمالاتهم التعبيرية عن أفكارهم وحاجاتهم إلى تمثيلها لكي تستحيل بصمة أدبية يمكن من خلالها تحديد السمات الأسلوبية المتفردة، ويعتقد نور الدين السد أن الأسلوبية تسعى إلى وصف الظاهرة اللغوية المشكلة للخطاب الأدبي وتحليلها والبحث في دلالاتها وأبعادها الجمالية والفنية، دون الخروج عن سياق النص أو التعسف في تفسيره²

غير أن هذا التأكيد على طبيعة الدور الذي ينحصر في حدود وصفية صرفة للنصوص الأدبية؛ شكل منها منهجاً له ضوابطه وحدوده، ممّا حدا ببعض الدارسين إلى الاعتداد بمصطلح آخر هو (علم الأسلوب)، لذلك يعرفه (ريفاتير) بأنه "علم يوضح الخصائص البارزة التي تتوفر لدى المرسل والتي بها يؤثر في حرية التّقبل لدى المتلقي بل إنه يفرض على هذا المتلقي لونا معيناً من الفهم والإدراك"³

إن السعي إلى "علمنة" مثل هذه المفاهيم وإضفاء عنصر الموضوعية في تعاملها مع المدونة باعتبارها بنية مستقلة جعل منها إجراءات أدلية تمارس بها مجموعة من العمليات التحليلية التي ترمي إلى دراسة البنى اللسانية في النص الشعري وعلاقات بعضها ببعض الآخر للوصول إلى معرفة قيمها الفنية والجمالية وما يميزها إبداعاً وتأنقاً، وهذا بتتبع منتظم للغة الأثر الأدبي وأصولها وتركيبها ودلالاتها ورصدها لمعرفة درجة التأثير والتأثر ونوعيته عند المتلقي، حيث تتباين درجات التواء بمقدار السمات اللغوية التي يعمل فيها المنشئ انتقاء أو إقصاء وتكثيفاً أو خلخلة؛ باعتداده على تقنيات التشكيل في نصه المنتج. بيد أن بعض الباحثين يعتقد أن الأسلوبية "تعالج النص الأدبي من خلال عناصره ومقوماته الفنية وأدواته الإبداعية، متخذة من اللغة والبلاغة جسراً تصف به النص الأدبي وقد تقوم أحياناً بتقييمه؛ من خلال منهجها القائم على الاختبار والتوزيع مراعية في ذلك الجاذب النفسي والاجتماعي للمرسل والمتلقي"⁴ بالتركيز على كشف العلاقة بين الدال والمدلول وبيان البعد العاطفي للكلمات ومدى استجابتها لتداعيات الإبداع في درجاته المتفاوتة، مع الكشف عما اكتسبته اللغة الأدبية من أبعاد جمالية مميزة عن اللغة العادية في مستواها المألوف، راسمة حيوية ومساراً استثنائياً ضمن دائرة ما يعرف "بالأسلوب" ولا شك في أن الإشكال يتجلى أساساً حول علاقته بالأسلوبية؛ وكيفيات اشتغال النصوص بمثل هذا المخزون اللغوي ومدى المقدرة الذاتية على الاختيار الواعي للمفردات، في مستواها القلموسي أفقياً وعند الإدراك الفعلي لمحاولاتها التركيبية عمودياً فالأسلوب - كما ورد في (لسان العرب) - يطلق على السطر من النخيل وكلّ طريق ممتد وهو أيضاً الوجه والمذهب والجمع أساليب فيقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفنن منه⁵ وجاء في (القلموس المحيط) بمعنى الطريق⁶، أمّا في (أساس البلاغة) فالتخذت المعاني السالفة ديدناً في تفسير معنى الكلمة فقيل: سلكت أسلوب فلان: طريقته وكلامه على أساليب حققة⁷ أما في اللغة الفرنسية فإن المادة اللغوية (style) تتعدد معانيها فمنها: المنهج أو الطريقة في الكتابة (أسلوب داعم) والتعبير عن الفكر أو الشكل اللغوي الصافي في نشاط أو في وسط (أسلوب إداري)⁸

إن سلوك الكلمة وقابلية تمددها فكرياً واحتمال استيعابها لمضامين معرفية متعددة وقدرتها على الانصهار في بوتقة مباحث التحليل الأدبي والدراسات النقدية، أعطى فضاءات دلالية أخرى لمصطلح الأسلوب باعتباره "مفرد لغوي لصالحه والذي يخترق بسماته المميزة الحوائل النمطية الأدائية، ويكون أشبه بالشعاع الذي نشعر به ولكننا لا نستطيع أن نقبض عليه⁹ ويعرفه (بوفون) بقوله: "المعارف والوقائع والكشوف يسهل نقلها وتعديلها بل تكسب مزيداً من الثراء إذا تناولتها أيدي كثيرة فهذه الأشياء خارجة عن الإنسان أمّا الأسلوب فهو الإنسان نفسه"¹⁰ ولا شك في أن ما يميز مبدعاً عن آخر هو أسلوبه التعبيري، وطريقته في استلها المعاني التي يراها عمرو بن بحر الجاحظ مطروحة في الطريق، ولكن مكدن الصعوبة يبقى في كيفية تقييدها بما يلائمها من ألفاظ وعبارات؛ ضمن منظور أوسع ينطلق من الجملة الأصغر ليبلغ الجملة الأكبر (النص)؛ وعليه ينظر (ريفاتير) إلى الأسلوب بوصفه انحرافاً داخلها عن السياق الذي يمثل محور التعرف على إجراءاته الأسلوبية ويمنح خروجه على القاعدة اللسانية سمته الخاصة¹¹.

ولاستكناه عمق اللغة الأدبية ولستكشاف طبيعتها؛ ينبغي الإشارة إلى ما يفرق جوهرها عن اللغة العادية؛ التي هي "لغة تلقائية في كثير من الأحيان، لا يتوخى من اختيارها قصدية ما"¹². إن مفهوم الأسلوب في حقيقته ليس محروناً بمعنى تجريدي جاف؛ بل هو نظام لسانی خاص ومتميز، يهيمن على مجموع النصوص الأدبية حيث "يتزلمن فيه وجود المستويات المختلفة التي تحيل عليه، بيد أن هذا التزلمن يتفكك بفعل طبيعة التحليل الأسلوبي"¹³ فجمااله وحركته الرشيقية تتواءم والحركة النحوية السليمة في حركة ترتيب وتنظيم لرؤية الكاتب نفسه، وتوجيهه لأبعادها المنبثقة من داخل المبدع ومن التفاعلات الذاتية المتجلية في جمل منظمة نحوياً¹⁴ ممّا عزا بالبعض إلى اعتبار الأسلوب تضميناً (connotation) لكل سمة لغوية فيه قيمة أسلوبية معينة في ذاتها مرتبطة بالبيئة وسياقاتها¹⁵.

والواضح أن تفاعل البنى ولتنظيمها لا يجعل النصوص متعلقة على عنصر مميز يحصر في نطاق ما يمكن أن يزيد من قيمته العناصر المهيمنة باعتبارها سمات لغوية إذ يتعدى إلى ما يعرف بالإضافة (addition) التي هي "حقيقة واقعة لا بد للقارئ أن يتعامل معها بما تحمل من تأثيرات وجدانية تتجسد في الشحن العاطفي الذي تحمله اللغة في ثناياها، وهو عنصر لا يمكن إغفاله أو إهماله لأنه عنصر يحقق عملية الجذب للنص والالتفات إليه والاندھاش به"¹⁶. وبذلك، يستند الأسلوب إلى محددات تشكّل، في جوهرها، منطلقات أساسية لتراتبية منهجية يتوخاها المبدع في تعامله مع ما توافر له

من قدرات لغوية، تتيح له إمكانية ممارسة عملية البناء بطريقة منتظمة وواعية تستشعر المضامين وتمارس عليها فعل الكتابة بالمرور على الاختيار والتركيب والانزياح.

فاللغة وسيلة تلفت الانتباه إلى ما تشير إليه، وتضطلع بأداء وظيفة تواصلية أساسية ضمن المؤسسة الاجتماعية الواحدة كما توفر للمرء قلبية التعبير عن أحاسيسه وخواطره¹⁷ وتسمح بإمكانية الانتقاء الحر من مخزونها الممتد والثابت في مستواه القلموسي، غير أن الأنظمة التي تتيحها قواعد اللغة لا تسعف الشاعر -مثلا- على تفجير إمكاناته الإبداعية، وتوظيف طاقاته الإيحائية مما يحيل الاختيار إلى مقوم من مقومات صوغ المتتالية اللسانية عبر تصور متجدد يتمظهر خلال تشكله فتتقاطع فيه "عموميات القانون اللغوي، لكنه ينفرد بخصوصيات ذات طبيعة كلامية فردية تعبر عن المظهر الإداري الواعي للمؤلف"¹⁸ في تعامله مع ما ينتقيه ضمن بنية نصية يرى أنها المناسبة والأكثر انسجاما مع رؤيته.

لقد ميز الدارسون بين نوعين من الاختيارات؛ اختيار نفعي يهدف إلى تحقيق هدف عملي محدد وربما يؤثر فيه المخاطب كلمة أو عبارة على أخرى أكثر مطابقة للحقيقة أو لغاية ما في نفسه، رابطا فيها مقالته بمقالته، وآخر نحوي يقوم على مراعاة نظام الجملة وخضوعها لقواعد اللغة الصوتية والصرفية والدالية ويتضمن موضوعات بلاغية كالتقديم والتأخير والوصل والفصل والذكر والحذف.

إن هذه العملية المعقدة تستحيل آلية بين ثابت لغوي ومتقبل، يتصرف في اختياراته دون زعزعة هذا النموذج المتكامل أو المس بنولميسه المتعارف عليها؛ ويعتمد ذلك بالأساس على ثروة المنشئ اللغوية وقدرته على الانتقاء من النظام اللغوي وما يقدمه له من احتمالات كثيرة، وفق منطلقات تتوالش وجوهر المقدرة الإبداعية في استثمار المحتوى المعجمي وراثته ومحاولة إنتاج خطاب أدبي يمثل حركية بدلية، تسمو بالكلمة في فضاءات أوسع ومستويات أشمل، يمثلها التركيب القائم على علاقات التجاور وسياق التأليف وفيه تكتسب الكلمات دلالاتها داخل النسق اللغوي، مشكلة بنية أدائية خاصة قادرة على تبليغ المضمون وإيصاله دون خلل يحتمل تأثيره في قنوات التواصل بين الباث والمتلقي. إن النص الأدبي عالم لغوي متكامل وأدبيته تتحقق بمدى انتظام وحدته وإحكام تركيب كلماته المختارة، وفق امتداد خطي ذي أثر وفعالية بما يتضمنه من قيم جمالية أو فنية.

وإذا كانت اللغة "تحتوي مفردات متعددة تتركب منها أعداد لا تحصى من العبارات والجمل، فإن القضية المثارة هي البحث عن الدلالات المتعلقة بأسباب اختيار جملة بدل جملة أخرى وتفضيل تركيب على تركيب بسواه"¹⁹ والمسألة -من هذا المنطلق- تتعلق بمرحلة من مراحل التعامل مع اللغة، "فكل تركيب أسلوبية يتضمن أبعادا دلالية تخصه وأن أي تغير في بنية التركيب بتقديم أو تأخير في بعض وحدته اللغوية... يكون بهدف ويتقصده المنشئ عن وعي وإدراك ولا يمكن أن تظهر خلاصة أسلوبية دون قصد، فمهما كان التغيير طفيفا في الترميز فإنه يأتي لاستجابة لنسق"²⁰ تتجلى معالمه في طريقة تنضيد الكلام وكيفية صياغته، مراعاة لعوامل ذاتية فرضت بنية من دون أخرى والاختلاف في طرائق التعبير عن خطابات ظاهرة فردية قبل أن تكون توافعا اجتماعيا اعتباريا، ذلك أن متكلما واحدا لا يعبر بالطريقة نفسها عن الخطاب الواحد لو أعاد كتابته أو إرساله"²¹

لما إجرائيا فإن مقارنة النص الأدبي لنطلق -لدى بعض الدارسين- من منحنيين تجزئيين للتركيب فهناك تراكيب نحوية وأخرى بلاغية تسمو بالإبداع إلى مستوى فني مثير "من خلال وحدته ولنسجله الدخلي وهذا يتفق مع مفهوم الأسلوب المبني على أساس لسانيات النص التي تعد الأسلوب طريقة لبناء النص"²²

ولا ريب في أن ارتقاء لغة الأدب عن مستويات الخطاب المؤلف مرده إلى مبحث ثالث من مباحث الأسلوب يخص ظاهرة الانزياح لكونها حدثا لغويا يظهر في تشكيل الكلام وصياغته مما يسمح بالتعرف إلى طبيعة الكتابة الإبداعية عند المؤلف؛ إنها فلسفة تقوم على استخدام المادة اللغوية بما يتجاوز نمطية تركيبها التقليدية التي "تكتسب فعالية تكسر سكونية البناء النحوي، في نسق المتسم بجبهات ثباته ورتابة نظمته"²³ وهناك من المشتغلين بالنصوص الأدبية من يرى فيه تشويشا لما هو ثابت في ذهن القارئ ووعيه؛ فيتولد عنده إحساس بالدهشة والمفاجأة من اللامنتظر واللامتوقع، ويتشكل لديه لذة وطرافة وغرابة تجعل النص بمنأى عن المباشرة والتقريبية²⁴ بتجلياته المختلفة وفعاليته المتجددة وفي استعمال صورته غير المألوفة والأعادية، متجاوزة الأنماط التعبيرية المتواضع عليها؛ حيث تمارس خرقا منظما لشفرة اللغة العادية لكي يعاد بناؤها في مستوى أعلى وأفق أرقى، لذا ينظر إليه على أنه "تجربة في اللغة أو هو اللغة التي أعيد إليها ما كادت تفتقد إليه، ولعل ما يميزه هو كونه ليس نمطيا ولا يمكن فهم انبثاقه للوهلة الأولى، لأنه في اللغة وخارجها وليس في وسعه أن يتركز"²⁵ لقد كان لتعدد الرؤى الاصطلاحية للانزياح أثره في بحث طبيعته المفهومية بوصفه مصطلحا نقديا، (فشارل بالي) **charle bally** عده (خطأ) و(ليوسبيتزر) **leo spitser** أثر استخدام (الانحراف)، وهناك من فضل استعمال عبارة (الكسر) أو (الانتهاك) بل نظر إليه (رولان بارت) **roland barth** على أنه (فضيحة)²⁶ ولم يبق هذا التعدد رهين مساحنة فكرية ضيقة، بل قبله اعتداد بمصطلحات نقدية عربية شابهها الاضطراب وتعدد التوظيفات كالعُدول والابتعاد والنشاز، حتى صارت محترنة بما أشار إليه البلاغيون العرب في معرض تطرقهم إلى الخروجات "عند حديثهم عن المجاز والحقيقة والاستعارة والتقديم والتأخير والحذف والإيجاز والإطناب وغير ذلك من القضايا البلاغية والنقدية الأخر"²⁷.

إن محددات الأسلوب الثلاثة (اختيار - تركيب - انزياح) تتصافر لتشكيل بناء لغويا تتقاطع بدخله مستويات صوتية ومعجمية ودلالية وأخرى تركيبية، و رصد هذه الظواهر في النص الأدبي يمكن أن يعين "على قراءته قراءة استبطانية... تنبعت عن القراءة السطحية والهلمشية"²⁸ وتتولى الأسلوبية هذه المهمة بتركيزها على تحديد سماته المتفردة ووظائفه الجمالية وتحليل "مكونات الخطاب إلى وحدته اللغوية الأساسية مع مراعاة السياقات الأساسية

الواردة فيها ومراعاة العلاقات البنوية للأنساق الأسلوبية في الخطاب²⁹ كما تتقصى المنبهات التعبيرية متجاوزة إلى ما يتفرع عن ظاهرتي الانزياح والتناص.

وهذا ما يجعل منها نشاطا فكريا وسلوكيا حيويًا يتعامل مع النصوص الإبداعية تعاملًا محايدًا، يرنو خلاله المحلل الأسلوبي إلى محاولة الإجابة عن سبب تشكل النص الأدبي وعن طبيعته البنائية والوظيفية، فانصب اهتمامها على المبدع والنص والمتلقي مما أدى إلى ظهور لتجاهات نقدية تصطبغ بمثل هذا اللون من الدراسات.

النص الأدبي وجدلية المكتوب/ المقروء

يمثل النص الأدبي نسقا له امتداده الفني الذي ينقله من مقصدية الكاتب إلى سلطة المكتوب، حيث تتجلى فيه بصمة اللغة بانفتاحها على نظامها القار بناموسه الخاص وقاموسه اللافت، وهو ما يعني أن لها حضور مفتوح على الكتابة والقراءة والمعنى وتعدد المعنى والماضي والحاضر والمكان والزمان والتذكر والتفكير، وهي الثنائيات المتفاعلة في مبنى النص الأدبي ومعناه.

إنّ استثمار المعطى اللغوي في التأسيس لنوع خاص من القراءة يسنح بتحديد هوية النص الأدبي والوقوف على خلفياته المعرفية والثقافية، التي لها دورها في تحقيق حضور النص وتحقيق إشعاعيته في سياق ما انتظم من القرائن الدالة على المقصود من الخطاب سواء أكانت القرائن مقالية أم حالية³⁰.

لذا يسعى النص الأدبي بحضوره هذا وبتعالياته اللغوية إلى تحقيق أدبيته بتحويل اللغة من كونها انعكاسا للعالم أو تعبيراً عنه أو موقفاً منه إلى أن تكون هي نفسها عالماً آخر، ربما بديلاً عن ذلك العالم مثلما يرى فان ديك (V.dijk)؛ فهي إذاً (سحر البيان) الذي أشار إليه الأثر النبوي الشريف، وما السحر إلا تحويل للواقع وانتهاك له³¹ في تجاوز لوضع اللغة السكوني للغة وانغلاق البنات النصية المكونة لمستوياتها المتفاعلة، انتقالاً بها من المستوى النظري إلى مستوى الممارسة المستمد حراكه من فاعلية الواقع الثقافي وسياقاته التي تعني المواقف الفعلية التي توظف فيها الملفوظات، والمتضمنة بدورها ما يحتاجه المرء لفهم ما يقال وتقييمه.

وهاجس السؤال حينما يتعلق بطبيعة النص الأدبي فإنه مرتبط أكثر بجدلية الكتابة/ القراءة وفي ظل اعتراف ضمني بانفتاحه على عمليات معقدة قد لا تكفي في ظاهرها بما تطرحه آلية التلقي التي تشترط قارئاً/ متلقياً/ يستهويه الإبداع وتؤثر فيه اللغة وقد استحالت مشحونة بالمعنى وما وراء المعنى، لكن وفي ظل هذا الهاجس المعرفي كيف يُمكننا التأسيس لنوع من القراءة تُراعى فيها خصوصية النص الأدبي ومرجعياته اللغوية؟ وهل تستطيع هذه القراءة أن تختصر مرحلة الانتقال بلغة الكتابة من مستواها الإبلاغي/ التواصل إلى مستواها الفني/ الجمالي؟ ألا يثير هذا المعطى هاجس السؤال وشغف الإجابة عنه في الآن نفسه؟ يُنظر إلى فعل الكتابة على أنه وسيلة من وسائل التعبير عن الذات، بطريقة مبنية على محاولة تموقع لغوي متفرد، له مستوياته الصوتية والتركيبية والمعجمية والدلالية؛ لتنصهر في جسد النص نفسه "روافد فردية واجتماعية ونفسية وأيديولوجية ولغوية وآنية وزمانية، كما أن علائقه الباطنة والظاهرة بمجمل السياق الثقافي للأمة ماضياً وحاضراً ويتشاجن ويتشقق بعضها من بعض"³² ضارباً مع القارئ موعداً كي يستنطق دلالاته ويفك رموزه.

إنّ النص المكتوب انطلاقاً من تشكيله اللغوي هو الذي "يستطيع القارئ في كل قراءة أن يكتبه ويتجه وهو يقتضي تأويلاً مستمراً ومتغيراً عند كل قراءة ولهذا يتحول دور القارئ إلى دور إيجابي نشط"³³، ويبدو أن صورة النص الورقية/ اللغوية الجديدة قائمة على الصفة المرجعية الفاعلة الذي يجسد أصالة الإبداع انتماءً وبناءً، بما اكتسبه من معطيات فنية وواقعية هي الأساس لب تشكيل نواته الأولى بأبعاد هندسية وامتدادات مؤثرة لها مجالها المنتمية إليه.

هكذا تتأسس قراءة النص الأدبي في ظل الدرس الأسلوبي على مستويات متلاحمة تلاحماً عضوياً تتمظهر فيها فاعلية النص وجمالية تلقيه واستمرارية وجوده وتعدد دلالاته، وبهذا تكون الكلمات أقدر على الحركة من المعاني لأنها تستطيع في مرحلة انتقالها النصي وارتحالها الفني أن "تعني أي شيء ويكفي في ذلك تأسيس سياق يوحد هذا المعنى الجديد"³⁴، لذا، فنص الكتابة بما له من مرجعية لغوية "نص تمددي مجاله هو مجال الدال الذي لا يهدي إلا دالاً مثله وبذلك تستمر دوائر التدليل في انفتاحها اللامتناهي، فمنطق الكتابة في مقامها هذا متأسس على التجاوز والإحالة والإيجاء المكثف"³⁵

إنّ الاهتمام بما يؤثّر أطر الإبداع المتحركة في هذا النوع من النصوص بطابعها الأدبي وتشكيلها اللغوي يحيل الدارس على مسألة العلاقة بين أفق النص/ الكتابة، وأفق المتلقي/ القراءة، وتلك وشيجة يمكنها أن تسنح بتحديد جمالية الأدب وحضوره بتحوّله، حسب "بارت" (Roland barth)، إلى مجال منهجي لا يعرف النهايات لتمييزه بالحركة والفاعلية المستمرة، وانطوائه على تعددية المعنى، الذي لا يمكن أن تقتضيه شبكة التفسيرات لطبيعته الانفجارية، كما أنه يتفاعل مع غيره من النصوص³⁶ بانتظام علاقاته الداخلية والخارجية التي تربطه بالذات المتلقية له، وبهذا يتاح لها بوصفها ممارسة لفعل القراءة فك رموز النص من زوايا متعددة الجهات³⁷.

وهذه المعطيات النصية متعلقة أكثر بالقدرة على استثمار ما تتيحه اللغة من إمكانية الاختيار والتركيب والتأثير وتلك خصيصة قد لا تتأتى إلا بالاعتماد على ما يتيحه فعل الكتابة من طرائق فنية للمواءمة بين عالمين أولاهما تخيلي والآخر واقعي، وهو ما يتطلب قدرة ودربة ذاتيتين ودراية خاصة بأصول اللغة وأفانين التصوير ينقل فيها الكاتب/ المبدع مواقفه أو مشاعره من مستواها الذاتي الخاص إلى مستواها المكتوب/ المقروء في شكل واقعة لغوية وإبداع من نوع آخر، وبداية حياة متجددة قوامها دورٌ سيضطلع به النص في محيطه الذي ينتسب إليه أو في بيئات أخرى سيسشد إليها الرحال ولو بعد حين، وفي طياته ذاتٌ

كاتبة/ منتجة ترى النص المكتوب "تجربة ومعرفة وتقنيات وأسلوب ومتخيل معين، لكنه يظل دلالياً فعلاً ناقصاً ما لم يتهياً له فاعل جمالي ضروري هو بالذات فعل القراءة"³⁸، فتلاقي النص والقارئ بمنح للنص الأدبي وجوده، لأنه يتجاوز اللحظة التي أنتج فيها ليتلقى في أزمنة عديدة، وكلما توفر البعد الإنتاجي في النص كانت إمكانيات إنتاجه من خلال التلقي مفتوحة³⁹.

ويؤدي انفتاح النص على التعدد الدلالي إلى إشراك القارئ في إنتاج المعنى وتوجيه بنياته بما يتواءم ومعطياته النصية ومستوياته المكونة، بدءاً بمستواه التركيبي الظاهر وانتهاءً بمستواه البلاغي المضمّر، وعلى ما يبدو فإن هذين المستويين لا يمكن للقارئ الخوض فيهما ما لم يكن مزوداً برصيد لغوي يتناسب ولغة النص نفسه وإلا اتسمت تلك القراءة بالسطحية لملامستها ظاهر النص دون عمقه.

وعليه يتجه النص الأدبي في انفتاحه دلالياً إلى سلوك مسلك آخر أقرب ما يكون إلى مخالفة المألوف وكسر أفق الانتظار؛ لانبثاقه نصاً وعنونة على توجه لسانی سواء تعلق الأمر بالتركيب النحوي أم بالتعلق الدلالي وكلاهما له وجوده الفاعل في عملية التحليل، فنتاج الأول بنية عميقة ترتسم معها دلالات أفق التوقع الذي يوافق مضمون النص أو يعاكسه، وحاصل الثاني تعلق العناوين ونصوصها وفي الحالتين يبدو عنصر الدلالة ظاهراً⁴⁰.

هكذا يبلغ النص المكتوب بمفرداته المكونة لكيانه اللغوي حدود التحرر المتنامي للكلمة، حينما تستحيل فعلاً إبداعياً ببعده خطي، "إشارة حرة ولهذا فهي أقدر على الحركة من المعاني لأن الكلمة تستطيع أن تعني أي شيء ويكفي في ذلك تأسيس سياق يوحد هذا المعنى الجديد"⁴¹؛ فالكتابة بما هي ممارسة استكشافية تفترض نمطاً خاصاً من أنماط التلقي تراعى فيه قدرة القارئ على القراءة والتأويل والبحث عمّا يتوارى وراء نظام اللغة من دلالات غائبة في عمق اللغة الموظفة.

لذا، وتأسيساً على ما سبق، فإنّ النص الأدبي يتميّز بمستوياته اللغوية التي تسمو به شكلاً ومضموناً، وهذا لخصوصية خروج اللغة نفسها عن مألوف الاستعمال محققة سلطة للنص بأبعاد جمالية وأخرى دلالية يستند عليها المبدع في تأسيس كيان النص لغوياً ونفسياً واجتماعياً، وهذا الارتحال للنص الأدبي وما يقطعه من مسافة جمالية يجعله مقروناً بمحدود فاصلة بين لحظتي الكتابة والقراءة، في انعكاس آخر لقدرة المتعاليات اللغوية على تجسيد الرؤيا الإبداعية واستحضار الأمكنة والمواقف والأحداث وفق تشكيل في خاص يتطلب من الذات المبدعة وعياً بقيمة الكتابة في تعريفها بالأنا من جهة واستمرارية تأثيرها من جهة أخرى، ويتجسد الحديث عن التجربة الإبداعية باستثمار الملكة اللغوية في تشكيل مستويات النص وتحقيق حضوره الآني والمستقبلي بحثاً عن ارتحال آخر وقارئ سيضع بصمته قراءة وتأويلاً، وتلك من المزايا التي أتاححت للتأويل الأسلوبية تطوير أدواته الإجرائية في تعامله مع النص ومستوياته.

هوامش الدراسة:

- 1 - انظر: رجاء عيد: البحث الأسلوبية، معاصرة وتراث، د/ط، مطبعة الأطلس، القاهرة، مصر، 1993، ص 21.
- 2 - انظر: نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للطباعة والنشر، 1997، ج 1، ص 53.
- 3 - محمد عبد المطالب: البلاغة والأسلوبية، ط 01، دار نوبار للطباعة، القاهرة، 1994، ص 212.
- 4 - انظر: يوسف أبو العدوس: البلاغة والأسلوبية، ط 1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1999، ص 184.
- 5 - ابن منظور: لسان العرب، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، المجلد 01، 2003، المادة: سلاب.
- 6 - الفيروز آبادي: القاموس المحيط، د/ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999، ج 1، المادة: سلاب.
- 7 - الزمخشري: أساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1998، ج 1، المادة: سلاب.
- 8 - Larousse, dictionnaire de français, imprimerie par maury - Euroliveres à Manche courts, France, 2004, p.405.
- 9 - رجاء عيد: البحث الأسلوبية، معاصرة وتراث، ص 22.
- 10 - شوقي علي الزهرة: الأسلوب بين عبد القاهر وجون ميري، د/ط، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 1996، ص 40.
- 11 - حسن ناظم: البنى الأسلوبية، ط 01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص 77.
- 12 - موسى ربابعة: الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي للنشر، أريد، الأردن، 2003، ص 29.
- 13 - حسن ناظم: البنى الأسلوبية، ص 30.
- 14 - انظر: شوقي علي الزهرة: الأسلوب بين عبد القاهر وجون ميري، ص 58.
- 15 - انظر: يوسف أبو العدوس: البلاغة والأسلوبية، ص 162.
- 16 - موسى ربابعة: الأسلوبية، مفاهيمها وتجلياتها، ص 24.
- 17 - André martin: éléments de linguistique générale, Armand colin, paris, France, 4^{eme} édition, 2^{eme} tirage 1998, page: 9/10.

- 18 - نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 1، ص 22.
- 19 - رجاء عيد: البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، ص 120.
- 20 - نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 1، ص 172.
- 21 - عبد الجليل مرتاض: الظاهر والمتخفي، د/ط، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2005، ص 112.
- 22 - نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 1، ص 172.
- 23 - رجاء عيد: البحث الأسلوبي، معاصرة وتراث، ص 229.
- 24 - موسى ربابعة: الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ص 56.
- 25 - خيرة حمرة العين: شعرية الانزياح، ط 1، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، أريد، الأردن، 2001، ص 127.
- 26 - صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ط 1، دار نوبار للطباعة، القاهرة، 1996، ص 80.
- 27 - موسى ربابعة: الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ص 47.
- 28 - المرجع السابق نفسه، ص 58.
- 29 - نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 1، ص 51.
- 30 - ينظر: نجم الدين قادر كريم الزنكي: نظرية السياق، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006، ص 63.
- 31 - ينظر: عبد الله الغدامي: الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريرية)، ط 04، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998، ص 28.
- 32 - سعد عبد العزيز مصلوح: في النقد اللساني، ط 01، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، د/ت، ص 230.
- 33 - ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ط 02، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2000، ص 182.
- 34 - عبد الله الغدامي: الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريرية)، ط 03، دار سعاد الصباح، 1993، ص 70.
- 35 - رولاند بارت: درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بن عبد العالي، ط 03، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1993، ص 62.
- 36 - ينظر: المصطفى مويقن: بنية المتخيل، دار الحوار للنشر، اللاذقية، سوريا، 2005، ص 185.
- 37 - عمارة ناصر: اللغة والتأويل، ط 01، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007، ص 29.
- 38 - حسن نجمي: شعرية الفضاء، ط 01، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2000، ص 79.
- 39 - سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي (النص والسياق)، ط 02، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2005، ص 150.
- 40 - ينظر: أحمد مداس: لسانيات النص (نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري)، عالم الكاتب الحديث، إريد، الأردن، 2007، ص 44.
- 41 - عبد الله الغدامي: الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريرية)، ص 70.